(من كتاب الحجّ وروح العبادة فيه)

(٢)

الحجُّ فضائل وآثار

تأليف

عادل عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هديُ القرآن والسُّنّة ذِكرُ فضائل الأعمال الصالحة وثمراتها؛ لِيُقبل عليها العبادُ رغبةً في إدراك تلك الفضائل والفوز بهذه الثمرات، والحجُّ كغيره من العبادات ذكر الله تعالى له فضائل كثيرة، يعرفُ من تأمّلها حق التأمّل أنَّه لا مثيل لها، ولذا تابع العُبّاد بين الحجّ والعمرة، وحرصوا على الإكثار منه رغبةً في نيل هذه الأجور.

وقبل ذكر الفضائل لا بد من التنويه بركنية فريضة الحج، ووجوبه، وخطورة تركه، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، ولكنّه ممَّا يُذكَّر به لتهاون كثير من المسلمين فيه، فتجد فيهم مَن قد وجب عليه الحجّ، وتيسّر له بما منّ الله عليه من مال وصحة، ومع ذا يفرّط فيه إمّا بتركه بالكليّة، وإما بتأخيره من غير عذر، وهذا فعل خطير يُعرّض صاحبه للعقوبة، والآثار في ذلك كثيرة.

فالحـاجُّ يُؤدي فريضة الحـجّ لأنّ الله أوجبه عليـه، ورغبة في إدراك مـا جاء فيه من فضل عظيم، واسـتحضاره كفيل بأن يُوقعه صاحبُه -بإذن الله- على أحسن موقع.

والمسـتحْضِر لفضائل الحـجّ أكمل أداءً له من غيره، وأشـد إتقانًـا لـه، وأحرص علـى إكماله؛ لأنَّه يـرى فضائل علـى مثلها يُحـرص، ويعلم يقينًا أنّ الحجّاج والمعتمرين في نسـكهم تتباين أحوالهـم، وأن مقـدار ثوابهم يكون بحسـب إخلاصهم وإتقانهم لهذه العبادة الشريفة.

والمتأمّـل في أحاديـث الحـجّ الدالـة علـى فضائلـه - والتي سـيأتي ذكرُ بعضها في موضعه- يرى فيها فضلًا ظاهرًا من الكريم -سـبحانه- ومنّـة جليلة من الرحمـن عَزَّوَجَلَّ، فإليـك طائفةً منها لعلها تجعلك مُعظِّمًا لهذا النُسـك، مسـتصحبًا ثوابـه، مؤديًا إياه على أكمل حال.

فمن فضائله: أنّه سببٌ عظيمٌ من أسباب مغفرة الخطايا ومحو الآثـام، وإقالة العثرات وتكفير السـيئات، وهذا عينُ ما يطلبه كلُّ مؤمـن ومؤمنـة، ويسـأله كلُّ صادق مشـفق من تَبِعـات الذنوب

وآثارهـا وعقوبتهـا، يقـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في فضل الحـجّ: "من حـجَّ فلم يَرفُثْ ولم يَفْسُـقْ، رجَع من ذنوبه كيـوم ولدتْهُ أمُّه"[(١)]، إلا أنـه قال: "غُفِرَ له ما تقدّم مـن ذنبه" واختار ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أنّ المغفرة شاملة لغُفْرَان الصَّغَائِر وَالْكَبَائِر، وإليه ذهب القرطبي والقاضي عياض).

وإليه أيضًا مال الشيخ ابنُ عثيمين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ظاهر الحديث أنّ الحج يُكفّر الكبائر، وليس لنا أن نعدو الظاهر إلا بدليل)[(٢)].

وحتى من قال بعدم تكفير الكبائر إلا أنّه يرى أن لعبادة الحجّ إذا أدّيـت علـى أكمـل وجه أثرهـا في صاحبها، قال ابـن العربي: (وهـذه الطاعات ربما أثّـرت في القلب، فأورثت توبـة تُكفّر كل خطيئة)[(٣)].

فعبـادةٌ تُكفّـر جميـع الذنوب والمعاصـي جديرةٌ بـأن تُؤدَّى علـى أكمل وجّه؛ لأنّ هذا التكفير مشـروطٌ بالبعد عن المعاصي والمحرمات كما هو ظاهر الحديث.

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والترمذي
(٢) [فتاوى ابن عثيمين: ٢١/ ٤٠)]
(٣) [فيض القدير:٢:١٥١٥]

ومن فضائل الحجّ: أنّ الله لم يرضَ للحاجِّ المؤدّي لحجّه على أكمل وجهٍ جزاءً لحجِّه إلا الجنّة، والجنّةُ هي غاية كلُّ مؤمن ومؤمنة، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **"العمرةُ إلى العمرةِ كفّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة"**[1].

وقال القرطبي في بيان الحجّ المبرور: **(أنّه الحجّ الذي وفّيت أحكامه، ووقع موقعًا لما طُلب من المكلف على الوجه الأكمل)**[2].

ومن فضائل الحجِّ: أنّ خطوات صاحبه كلها في ميزان حسناته، فبكل خطوة يخطوها الحاجُّ رفع درجة أو محو خطيئة، وهذا فضلٌ عظيم لا يمكن لأحدٍ إحصاؤه، يقول رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **"ما ترفعُ إِبلُ الحاجِّ رِجْلاً ولا تضعُ يدًا، إلا كَتَبَ الله له بها حسنةً أو محا عنه سيئةً، أو رفعه بها درجةً"**[3].

(١) رواه البخاريُّ ومسلم.
(٢) [فتح الباري:٣/٤٣٢]
(٣) رواه البيهقي، وابن حبان، وهو حديثٌ حسن.

والحديث داخلٌ فيه -إن شاء الله- كل مركوب يحمل الحاجّ، فلعل بعض الحُجّاجُّ يخطو مئات الآلاف من الخطوات في سيره للحجِّ، وكلها -بإذن الله- في موازين حسناته.

ومن فضائله: أنّك -أيّها الحاجّ- واحد من الوفد الكريم الذين سيُكرمهم الله عند قدومهم إلى بيته بإجابة دعواتهم، فاستبشر بهذه الكرامة التي خصّك الله بها، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحجاجُ والعُمَّارُ وفدُ اللهِ؛ دعاهم فأجابوه، وسأَلوه فأعطاهم"(١).

فهم أجابوه لمّا دعاهم، وسيُكرمهم بالعطاء حين يسألونه ويطلبونه.

(ويرجع هذا الفضل إلى كون البيت منسوبًا إلى الله سبحانه وتعالى، فهو بيتُ الله في الأرض، والوافد عليه الزائر له، إنما هو في حقيقة الأمر وافدٌ على الله تعالى زائرٌ له، وهو سبحانه أكرم مَزُورٍ وأعظم مسؤول، بابُه لا يُغلق، وقاصِدُه لا يندم؛ فلا يكفيه سبحانه الإكرام لحظة دخول الزائر بيته، وإنما بمجرَّد خروجه من مكانه الذي هو فيه، قاصدًا البيت العتيق، أصبح في ضيافة الله

(١) رواه البزار، ورواته ثقات، وهو حديثٌ حسن.

تعالى، فكان الطريق إلى الله تعالى رَفْعًا لدرجاته وحَطًّا لخطاياه، وأُجِّلت الجائزة الكبرى والمِنْحَة العظمى إلى رحلة العودة، فلا يعود من زيارته ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلاَّ قد رجع كما ولدته أُمُّه)

واقرأ معي -أيّها الحاجُّ الموفق- هذا الحديث العظيم في معناه، الجليل في بشائره لكل حاجٍّ قصد وجهَ اللهِ في حجّه، وسيُنبئك عن فضل الله على عباده المؤدِّين لهذه العبادة، وكرامته لهذا الوفد المبارك، الذين تركوا الأهل والأوطان يبتغون فضل الله وكرامته، فعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: (كنت جالسًا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مسجد مِنى، فأتاه رجلٌ من الأنصارِ ورجل من ثَقيف، فسلما، ثم قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك. فقال: **"إنْ شِئْتُما أخبَرْتُكما بما جِئْتُما تسألاني عنه فعلْتُ، وإنْ شِئْتُما أنْ أُمْسِكَ وتسألاني فعلْتُ، فقالا: أَخبِرْنا يا رسولَ اللهِ، فقال الثَّقَفيُّ للأنصاريِّ: سَلْ، فقال: جِئْتَني تسألُني عن مَخْرَجكَ مِن بَيتِك تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، وما لَكَ فيه، وعن ركعتَيْك بعدَ الطَّوافِ وما لكَ فيهما، وعن طوافِك بينَ الصَّفا والمروةِ وما لكَ فيه، وعن وقوفِكَ عَشيَّةَ عرفةَ وما لكَ فيه، وعن رميِكَ الجِمارَ وما لكَ فيه، وعن نَحْرِكَ وما لكَ فيه،**

مع الإفاضةِ، فقال: والذي بعثَك بالحقِّ، لَعَنْ هذا جِئْتُ أسـألُك، قال: فإنَّكَ إذا خرَجْتَ مِن بَيتك تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، لا تضَعُ ناقتُك خُفًّـا، ولا تَرْفعُـهُ، إلَّا كَتَبَ اللهُ لكَ به حسـنةً، ومَحا عنكَ خطيئةً، وأمَّـا ركعتـاكَ بعدَ الطَّوافِ؛ كعِتْـقِ رَقَبةٍ مِن بني إسـماعيلَ، وأمَّا طوافُكَ بالصَّفا والمروةِ؛ كعِتْقِ سـبعينَ رقبةً، وأمَّا وقوفُكَ عَشِـيَّةَ عرفةَ؛ فإنَّ اللهَ يَهبطُ إلى سـماءِ الدُّنيا فيُباهي بكُمُ الملائكةَ، يقولُ: عِبادي جاؤوني شُعْثًا مِن كلِّ فَجٍّ عميقٍ يرجون رحْمتي، فلو كانتْ ذُنوبُكـم كعددِ الرَّملِ، أو كقَطْرِ المطـرِ، أو كزَبَدِ البحرِ، لغَفَرْتُها، أَفيضوا عِبادي مغفورًا لكم، ولِمَن شَـفَعْتم له، وأمَّا رَمْيُكَ الجِمار فلكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيْتَها تكفيرُ كبيـرةٍ مِنَ المُوبقاتِ، وأمَّا نَحْرُكَ؛ فمَدْخـورٌ لكَ عندَ ربِّكَ، وأمَّا حِلاقُكَ رأسَـكَ؛ فلكَ بكلِّ شَـعرةٍ حَلَقْتَها حسنةٌ، وتُمْحى عنكَ بها خطيئةٌ، وأمَّا طوافُكَ بالبيتِ بعدَ ذلـكَ؛ فإنَّكَ تَطوفُ ولا ذَنْبَ لكَ، يأتـي مَلَكٌ حتَّى يضَعَ يدَيْهِ بينَ كَتِفَيْكَ، فيقولُ: اعمَلْ فيما تَستَقبِلُ؛ فقد غُفِرَ لكَ ما مَضى"(١).

(١) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

وهـذا حديث لو أفرد في بيان فضله مصنف لمَا كفاه، فكم فيه من فضائل لكل عمل من أعمال الحاجّ، وكم فيه من عطايا تفضّل بها ربنا الرحمن.

ومن فضائل الحجّ: أنّ من مات فيه كُتِبَ له أجْرُ الحاجِّ إلى يومِ القيامـةِ، وهذا -كما ترى- فضلٌ لا مثيل له، وعلى مثله يُحرص، فعن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "مَن خرَجَ حاجًّا فمات، كُتِبَ له أجْرُ الحاجِّ إلى يوم القيامةِ، ومَن خرَجَ مُعتمـرًا فمات، كُتِبَ لـه أجْرُ المُعتمرِ إلى يـومِ القيامةِ، ومَن خرَجَ غازيًا في سَبيلِ اللهِ فمات، كُتِبَ له أجْرُ الغازي إلى يوم القيامةِ"(١).

قال أهل العلم: ومسـألة الثواب على العمل الصالح أمره إلى الله تعالى، فلا يدخله قياس.

وقد جاء الحـثّ على المداومة على الحـجّ والعمرة، وبيّنت الأحاديـث فضائلهـا يقـول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: "تابِعـوا بيـنَ الحجِّ والعمـرة، فإنَّ متابعةً بينهما تنفي الفقـرَ والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديدِ"(٢).

(١) رواه أبو يعلى، وقال الألباني صحيح لغيره.

(٢) وهو في صحيح النسائي.

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "تابعوا بين الحجِّ والعمرةِ، فإنَّهما يَنفيان الفقرَ والذنوبَ كما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ، وليس للحَجَّةِ المبرورةِ ثوابٌ إلا الجنةَ"[1].

فهنيئًا لنفس شغفت حبًّا في الحجّ والعمرة، فتابعت بينهما بحيث لا تكاد تنقطع عنهما رغبةً في أجرهما، وحيازة فضائلهما.

وفي هذا الحديث: مشروعية المتابعة بين الحجّ والعمرة، لا كما يقول من قلّ فقهه في هذه العبادة، ويضع أعذارًا وحجّجًا واهية في المتابعة بين الحجّ والعمرة، واعتراضًا لمن يُتابع بينهما، وقد يسّر الله له السبل والأسباب.

ومن فضائل الحجّ ما جاء في حديث ماعز التميمي قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفضَلُ الأعمالِ الإيمانُ باللهِ وَحدَه، ثمَّ الجهادُ، ثمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تفضلُ سائرَ الأعمالِ كما بينَ مطلعِ الشَّمسِ إلى مغرِبِها"[2].

(١) رواه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان في "صحيحيهما"، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) وهو في صحيح الجامع.

وقولـه: "ثمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تفضلُ سـائرَ الأعمـالِ كما بينَ مطلعِ الشَّمسِ إلى مغرِبِها" قال المناوي: (مبالغةً في سموها على جميع أعمال البَرّ)[١].

ففيه الإشارة إلى فضلها على كثير من الأعمال، (ولذا لمّا سُئل بعض السـلف عن المفاضلة بيـن الحج وبين الأعمال الصالحة، أجاب السائل:

أين أنت من الطواف والسعي!؟

أين أنت من الوقوف في عرفة!؟

أين أنت من المبيت بمزدلفة!؟

أين أنت من رمي الجِمار!؟)

والمعنـى أنّك لا يمكن أن تُدرك فضل هذه الأعمال الصالحة إلا في الحجِّ، فليست ثَمَّ عبادةٌ فيها الوقوف بعرفة إلا الحجّ، وليس مبيت هو عبادةً إلا في مزدلفة، وليس هناك عبادة تُرمى فيها الجِمار إلا عبادة الحجّ، فخُصّ وفضّل عن غيره بمثل هذه العبادات التي لا تفعل إلا فيه.

(١) فيض القدير: [٢:١٥١٠]

ولمّا كان كثيرون من أفراد الأمّة يعجزون عن الجهاد في سبيل الله -والذي هو ذروة سنام الإسلام، وأجوره عظيمة جدًا، ولكنّه يحتاج إلى قوة وشوكة- جعل الله لهم من الأعمال ما يُعوّضهم عن ذلك، بل ربما وصل إلى ثوابه، ففي حديث الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: إنِّي جَبانٌ وإنِّي ضَعِيفٌ. فقال: **"هَلُمَّ إلى جِهادٍ لا شَوْكَةَ فِيه؛ الحَجُّ"**[(١)].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: قلت: يا رسول الله، نُرى الجهادَ أفضلَ الأعمال، أفَلا نجاهد؟! فقال: **"لَكُنَّ أفضل الجهادِ؛ حجٌ مبرور"**[(٢)].

فهذه بعضُ الفضائل للحجّ تُنبئ الحاج عن عُلّو منزلته وكثرة أجوره، وتُرَغِّبُهُ فيه، وتجعلهُ يسعى جهده في إيقاعه على أكمل وجهٍ وأتمِّه رغبةً في إدراكها.

❋❋❋

(١) وهو في صحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري.